البصرة عاصمةً للثقافة

لا يا اخي فاضل، لا تفعلها!

محمد سعيد الصكار

وقفت على رأي لأخي الاستاذ فاضل ثامر رئيس الاتحاد العام للكتاب والادباء العراقيين طرحه اثناء مشاركته في مهرجان السياب الثاني الذي عقد في مدينة السياب ومدينتنا مؤداه ان بغداد التي كانت مرشحة لأن تكون عاصمة الثقافة عام ٢٠٠٩ وتأجلت الى عام ٢٠١٣ بسبب الاوضاع الامنية التي لا تتيح لمثل هذا الحدث الثقافي المرموق ان يأخذ ابعاده بالشكل الذي يقتضيه الموضوع، وبالشكل الذي تستحقه بغداد قال (ما معناه): انه يمكن الاحتفال الذي يمتد سنة كاملة، في البصرة بدل بغداد.

شناشيل البصرة

وهذا رأي غريب على البصريين ومن انتسب الى البصرة فخوراً (من امثالي) وانا لا ادري ان كان اخي فاضل من اهل البصرة، مولداً او انتساباً فما كنا نقيم وزناً لهذه الامور فنتساءل عن انتماءات بعضنا في القومية والدين والطائفة والمدينة.

اقول لو كان أخي (فاضل) من اهل البصرة لما جازف بهذا الاقتراح، فكيف يتأتى لأهل البصرة الكرماء ان يستقبلوا ضيوفهم بين الخرائب والمياه الاسنة والطرقات المتردية، وباعة الخردوات المحشورين بين ارصفتها الجميلة.

هل كان في ظن اخي فاضل ان ما ستخصصه الحكومة من ميزانية لهذا المشروع، وهي ميزانية بائسة على كل حال، يكفي لأن يعيد بهاء البصرة الى ما كانت عليه زمن السياب ومهدي عيسى الصقر ومحمود البريكان وسعدي يوسف وفيصل السامر ومحمد جواد جلال ومحمود عبد الوهاب وعبد الحسين الشهباز ومحمد جواد الموسوي وكاظم نعمة التميمي وعلي عباس علوان وخيري الضامن وعدنان المبارك وتوفيق البصري ومحمد راضي عبد الله وزكية الدكاكة وعودة المهنا، وسواهم من كواكب البصرة التي كانت زوارقها العشارية الانيقة والنظيفة تنطلق من جسر المقام، وتنساب رخية من نهر المدة الى شط العرب محملة بكل الطيوب التي يتوق لها الندماء.

هل كان لأخي فاضل ان يحضر منتديات الأدب في البصرة ايام زهوها؟ واي المنتديات سيرتاد مع ضيوفه، أمنتدى الرابطة الثقافية، ام مجلس السيد عباس شبر ام مجلس محمد جواد جلال ام مجلس السيد جواد السهلاني ام مجلس محمد سعيد الحكيم، والى أي المكتبات سيأخذ ضيوفه؟ أإلى مكتبة آل باش اعيان؟ ام مكتبة فرجو ام مكتبة الجميع ام مكتبة صبري ام مكتبة فيصل حمود، ام مكتبة الاديب، وكلها ذهبت مع الريح.

كيف ستطلعونهم على اول أوبريت عراقي انطلق من البصرة، وبماذا ستحدثون ضيوفكم عن حميد البصري وشوقية وطالب غالي وام لنا وفؤاد سالم المشردين في اقطار الدنيا وكيف ستوثقون حركة المسرح البصري الذي لا ارشيف له؟

في زماننا كانت قصور آل المنديل وعبد اللطيف آغا جعفر المطلة على شط العرب، عامرة بنكهة التاريخ وكرم الضيافة، تستقبلنا للتنزه فيها، وكان الناس يؤمونها للنزهة والترويح عن النفس، وكانت مفتوحة للجميع، فأين ستذهبون بضيوفكم الآن، ماذا سترونهم؟

اين الأمسيات التي تشعشع فيها اضواء نهر العشار (المدة) وتندفع فيها الزوارق العشارية الى منابع الفتنة والجمال، اين الشناشيل البصرية وبدائع المعمار ما الذي بقي منها لتتبجح به البصرة في هذه الايام السوداء؟!

لا يا اخي فاضل إصرف عنك هذه الكأس، لأنها شديدة المرارة عليك وعلى البصريين الذين لا يريدون لمدينتهم ان تختزل بمعرض لكتاب او رقصات شعبية او قراءات شعرية لا ينصت لها احد، او تجارب ادبية لا تنتقل الى الاجيال كما يفترض، او خطابات حماسية عن عتبة بن غزوان والحسن البصري والخليل الفراهيدي والجاحظ وغيرهم ممن اضاءوا تاريخ هذه المدينة التي كانت بحق عاصمة للثقافة في زمانها.

وتعال الآن الى ما يمكن ان تتصدق به عليكم الحكومة بميزانية خاصة لهذا المشروع، أفيكفي ذلك لبناء دار للاوبرا او لمكتبة معاصرة، او أي مبنى ذي مكانة مناسبة؟

ألم تخصص لكم الحكومة قبل تأجيل موعد ٢٠٠٩، مبلغ مليوني دولار لتغطية نشاط بهذا الاتساع، يستمر لمدة سنة، وتؤمه وفود من اطراف الدنيا؟ فإذا كان قدر بغداد مليوني دولار فما قدر البصرة في نظر الحكومة التي تصرف الملايين لمؤتمرات وقتية لا تتجاوز الاسبوع، ولا تتمخض عن شيء سوى لقاءات الزملاء؟

لا يا اخي فاضل لا تنكأ جراحات البصرة، فسيحرجها ان تستقبل ضيوفها بالعكاز والنظر الكليل والوجع المتخثر، دعها تشفى وتستعيد عافيتها وتستدعي افراحها الهاربة، وتتزين لتكون عاصمة للثقافة، ولا يأخذك الخوف عليها، ففيها الكثير من الأساة الذين يضمدون جراحها ويواصلون ابداعهم إكراماً لتاريخها ومبدعيها.

ما تحتاج اليه البصرة وبغداد، وكل مدن العراق (بعد الأمن والاستقرار) ليس ضخامة الميزانية للنهوض بمثل هذه المشاريع وانما للوعي بأهميتها والتعامل معها بحجم ما يفترضه هذا الوعي.

بهذا تتقدم مهمة تثقيف الناس، وفي مقدمتهم المسؤولين، بقيمة هذه المشاريع الحضارية على غيرها من شؤون، ويقتضي هذا ان يشرع من الآن بحملة التثقيف هذه، وان يخطط لآفاق هذا المشروع، والتوكيد على فهم ما يعني ان تكون مدينة ما عاصمة للثقافة. وهذا هو أصل مهمتكم قبل الهروب من بغداد الى البصرة.

وللقول متسع، وللحديث صلة.

مخطوطات

نزهة الانفس وروضة المجلس للواحدي

د.جليل العطية

اثناء بحثي عن نفائس المخطوطات العربية في الخزائن الاوربية، وقفت في المكتبة الوطنية بـ"فينا" على مصورة مخطوطة عنوانها:

(نزهة الانفس وروضة المجلس) منسوبة الى محمد بن علي العراقي رقمها ٧٢٧ تتكون من ١١٠ ورقات. نسخها محمد بن منصور بن مسلم في يوم الاحد، خامس صفر سنة تسعين وخمس مائة (للهجرة) وبعد دراستها ثبت لي انها ليست للعراقي بل لأبي الحسن الواحدي شارح ديوان المتنبي.

وقبل ان أسوق الحجج على ذلك اقدم تعريفاً وجيزاً بهما:

العراقي: ابو سعيد محمد بن علي بن احمد بن حمدان الجاواني الحلي (٤٦٤-٥٦١هـ) قال السبكي في ترجمته في (طبقات الشافعية): وقد كُنى بأبي عبد الله وجاوان قبيلة من الاكراد سكنوا الحلة (وللعلامة الدكتور مصطفى جواد بحث معروف عن قبيلة جاوان نشره المجمع العلمي العراقي).

وقال العماد الاصبهاني في ترجمته في الخريدة انه (من اهل بغداد، كان قد تفقه على الغزالي (ت٥٠٥هـ) والهراسي ومن آثاره: كتاب عيون الشعر، الفرق بين الراء والغين، شرح مقامات الحريري).

اما الواحدي فهو ابو الحسن علي بن احمد بن محمد، النيسابوري المولود نحو سنة ٣٩٩هـ والمتوفى سنة ٤٦٨هـ وقد وصف بالامامة في التفسير والمتانة في اللغة والادب والنحو والعروض والقراءات ونعت شعره بالجودة والملاحة. من شيوخه: الصفار العروضي، الضرير القهندري، المالكي، الثعلبي، البستي، ومن تلامذته: الغزالي- الامام- الأريغياني الشافعي، الحسين الموصلي، الميداني صاحب مجمع الامثال وغيرهم. الف الواحدي مجموعة من الكتب وصل الينا منها:

- اسباب النزول
- شرح ديوان المتنبي
- البسيط في التفسير
- الوسيط في الامثال

ومن آثاره المخطوطة:

- شرح بانت سعاد
- شرح قصيدة النابغة الذبياني
- المغازي

ومن آثاره المفقودة:

- الاشباه والنظائر
- اصول الفصول
- ايضاح الناسخ والمنسوخ في القرآن
- المحصول
- علم فضائل القرآن
- المغازي

ثمة وشيجة راسخة بين الوسيط في الامثال -وهو مطبوع- ونزهة الانفس -المخطوط- فهما لمؤلف واحد، فاذا اثبتنا ان "الوسيط" من آثار الواحدي نكون قد اثبتنا ان "نزهة الانفس" له بلا شك ايضاً.

قال الدكتور عفيف محمد عبد الرحمن في مقدمة نشرته للوسيط (لست انكر انني عشت في دوامة من الشك بالنسبة لصحة نسبته الى الواحدي، واستمر هذا زمناً ليس باليسير ورحت احاول توثيقه من الداخل من المادة التي تضمنها فوجدت اشارات الى كتبه، وهي حقاً له حيث وردت في الكتب التي ترجمت له، وقد رددها كثيراً، كان يذكرها في كل مرة يريد ان يختصر فيقول "وقد شرحت هذا في كتابي الموسوم بكذا فلا نطيل ههنا، وبذلك ايقنت ان الكتاب للواحدي حقاً" وهذا اقرار منه بانه فشل في اثبات نسبة الكتاب الى مؤلفه، وفاته ان (عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣هـ) العالم الشهير، وثق نسبة الكتاب الى الواحدي في عدد من مؤلفاته بينها (شرح ابيات مغني اللبيب) و(خزانة الادب)، وما دام الامر ثابتاً فإن الواحدي اورد اسم "نزهة الانفس، تسع مرات" في "الوسيط" وفي جميع هذه الاشارات اقتباسات وجدناها في (النزهة) كما لاحظنا انه اورد اسماء عدد من مؤلفاته المعروفة بينها: بغية الطالب الى علم الناسخ والنسوخ والتحبير في شرح اسماء الله الحسنى، المغازي، مقاتل الفرسان وغيرها.

جاء في مقدمة النزهة

(وبعد فإني حضرت نادياً من أندية العلم الذي سكنت ريحه، وخبت مصابيحه وفيه جماعة من القضاة ومن يتحلى بالادب، فجرى بين اثنين تنازع وتشاجر وتخاصم وتنافر في دعوة ادعاها احدهما على الآخر، فلم يزل الحاكم يتلطف الفكر طوراً، وينذره ويخوف المدعى ويحذره ليراجع ايهما اعرض عن الحق، ولا يزداد كل منهما الا صلابة وثباتاً على دعواه.. فقال بعض المتشبهين بأهل الادب، والمدعين بلوغ الغاية في تحصيل ما جاء عن العرب من تصالب الرجلين، هما اقسى من الظربان زعم!

فقلت له يا عافاك الله ممن سمعت هذا المثل؟ فقال هذا مثل معروف مشهور لا ينكره الا جاهل، والعرب تقوله في اقامة الرجل على لجاجه وتصلّبه فقلت له: اتق الله فإن المعروف (أفسى من الظربان) فقال او تصحف المثل؟ زعم ان هذا لم يسمع به احد من الامم، فذكرت له شرح ما ذكرت على ما سيأتي بعد، ان شاء الله تعالى وبه الثقة).

وقد صنف الواحدي كتابه -النزهة- (للسيد الاجل، الاوحد، امين الدين، عزيز الدولة، ثقة الملك، عز الرؤساء ابي القاسم نصر بن الحسن بن الصفار).

وبعد الاشادة بالصفار يقول (ألفته على ترتيب المعجم.. وتجنبت وحشي الكلام ونوادره.. وسميته "نزهة الانفس وروضة المجلس" اذ كان كتابي هذا يشتمل على كل جنس من خبر جلي، وادب حي، وحكمة بالغة.. وملح غضة هي زبدة الحكم وادعية مشهورة هي نخبة الكلم وامثال مشهورة ونوادر متداولة هي زاد الرفاق ومآنس الطراق..).

سقت شيئاً من مقدمة النزهة لاظهار تشابهها مع الوسيط في الامثال، ومن المهم ايضاً انها كشفت اسم الامير او الحاكم- نصر بن الحسن بن الصفار والذي لم نجد ترجمة او ذكراً له في المصادر المتيسرة وفي تقديرنا ان الوسيط في الامثال ونزهة الانفس صنفا له.

كشف السر:

١- إن احداً لم يذكر اسم "نزهة الانفس" كأحد مؤلفات العز والوحيد الذي اشار اليه حاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ في كشف الظنون ٢:٧٤٩ (طبعة دار الفكر- بيروت- ١٤١٤هـ).

٢-إن المؤرخين الذين رصدوا اسماء المؤلفات الخاصة في الامثال لم يذكروا "العراقي".

٣-إن محمد بن علي العراقي كان فقيها وشعره الذي اطلعنا على ما وصل الينا منه يشبه شعر العلماء.

٤-سبق ان قلنا ان "الوسيط" و"نزهة الانفس" هما لمؤلف واحد هو الواحدي لا سواه.

٥-الثابت عندي ان مشوه "نزهة الانفس" لا يمكن ان يكون الفقيه "محمد بن علي العراقي" الذي اجمعت المصادر على الثناء عليه، بل انه يمكن ان نؤكد ان احد ابنائه او احد الناسخين الذين لفقوا كتاباً بينها "الوسيط" و"نزهة الانفس" وقدموها الى "ابي القاسم نصر بن الحسن بن الصفار" ليحصلوا منه على الجوائز المالية، غير ان هؤلاء فاتتهم اشياء فبقي اسم الواحدي على كتاب "الوسيط" اما كتاب "نزهة الانفس" وروضة المجلس" فقد بقيت فيه اسماء مؤلفات الواحدي شاهدة على "جريمة" ظلت خافية عدة قرون.. لكنها كُشفت وعاد الحق الى صاحبه: الامام الواحدي.

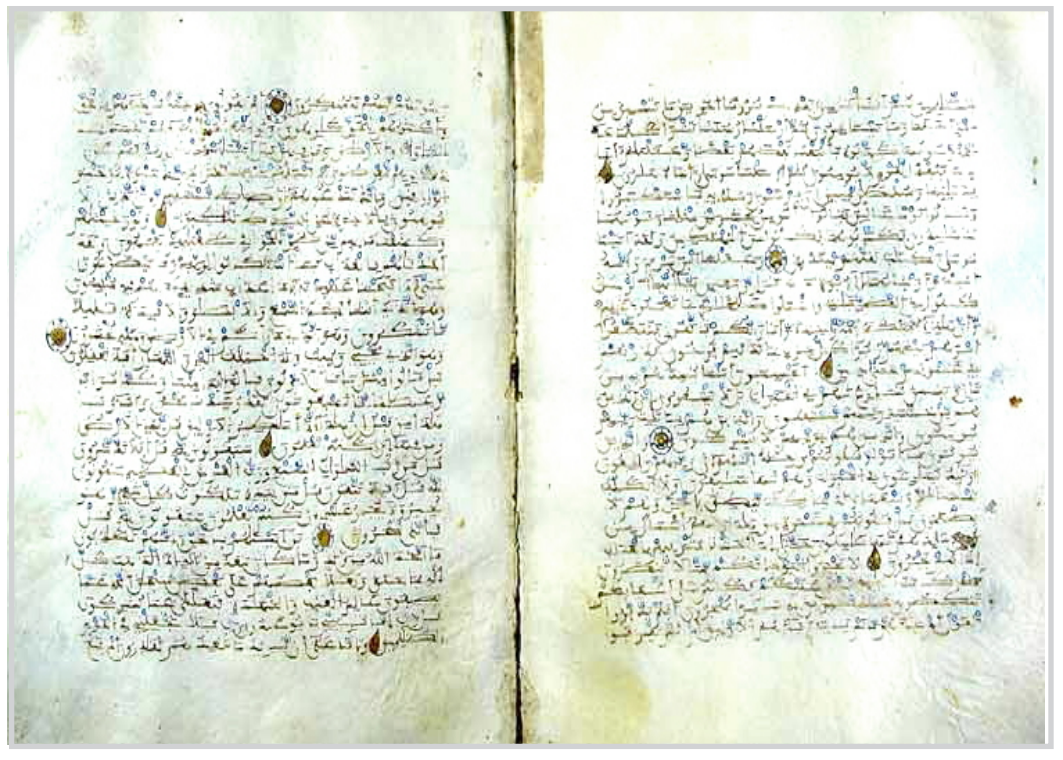

مغامرة الكتابة الروائية

سعد محمد رحيم

ادورد سعيد

تغدو الرواية مغامرة من اللحظة التي تحقق فيها انعتاقها من سلطة اللغة التقليدية، وبالتالي من البنى الذهنية التي تتلبس بنى تلك اللغة، أي حين تحقق انزياحها الخاص لغةً، شكلاً، ومحتوى فكرياً. ولأن لا شكل صلب ومقنن بصرامة للرواية، ولأن أشياء العالم وموضوعاته كلها يمكن أن تكون في متناولها فإن الرواية هي النوع الأدبي الأكثر مرونة من غيرها، وبحسب باختين فبنية الرواية "لا تزال بحاجة إلى زمن طويل لتستقر بشكل نهائي؛ ولا نستطيع حالياً التكهن بجميع إمكانيات تشكله" وهي، أي الرواية، والقول لباختين أيضاً "لا تمتلك قوانين خاصة؛ وما هو فعال تاريخياً يتشكل من عدة نماذج روائية، وليس من القواعد الروائية بحد ذاتها" وفي الأحوال كلها نكاد نكون أمام حدود مفتوحة، أو شبه مفتوحة. أمام سعة من الحرية لا يتيحها أي نوع أدبي آخر، ومن ثم فإمكانية استمرار الرواية، لمدة طويلة لاحقة، كبيرة. وإمكانية أن تقدم نفسها، بأشكال جديدة دوماً، كبيرة كذلك. وإذا كان باختين قد تحدث عن عدم استقرار بنية الرواية وعدم اكتمالها، وبالتالي مرونتها العالية فإن كولن ولسن وجد أن ريجاردسن الذي نشر روايته (باميلا) في العام ١٧٤٠ في إنكلترا "قد علم العقل الأوروبي الاستغراق في أحلام اليقظة" فالرواية هي التي أحدثت ثورة الخيال فغيرت أوروبا وقدرها، فكانت السبب في الثورة الصناعية والثورة الفرنسية (١٧٨٩) التي جاءت بعد نشر (باميلا) بخمسين عاماً كما يرى ولسن، وهو الذي يذهب إلى حد القول ان "ماركس وداروين وفرويد قد غيروا وجه الحضارة الغربية، لكن تأثير الرواية كان أكبر من تأثير هؤلاء الثلاثة مجتمعين".

أطلقت الرواية، على وفق ما يقول ولسن جماح الخيال، ولكن ما الذي جعل الرواية ممكنة ووفر لها شرط انبثاقها؟. هناك من يشير إلى اختراع الطباعة، وهناك من يتحدث عن فكر عصر التنوير الأوروبي وتحرر الذاتية الإنسانية، وهناك من يؤكد على صعود الطبقة الوسطى وتكون المدن الحديثة بمؤسساتها وعلاقاتها الاجتماعية، غير أن إدوارد سعيد يجد السبب الأساس لبزوغ فن الرواية في تطلع أوربا إلى ما وراء حدودها مع الاستكشافات الجغرافية والدخول في عصر الاستعمار.

إذن مع إدوار سعيد نكون مع فكرة المغامرة، الخروج من نطاق المكان إلى ما يليه، التعرف على الآخر.. التعرف على الذات من خلال الاحتكاك بالآخر.. تحديد الأمكنة، أو إعادة إنتاج الجغرافية السياسية في ضوء المصالح المستجدة.. أن يخترع الغرب شرقه، أن يتخيل شرقه، أن يعيد صياغة العالم ويفرض على العالم منطقه في إجراء تلك الصياغة.. هنا لا يغدو التاريخ (الماضي) وحده سرداً، بل صناعة التاريخ في الحاضر والمستقبل.. أن تشيع السلطة/ الغرب مرويتها/ روايتها.. أن تستبطن المروية نفسها موجهات السلطة. فالغرب بمنظور إدوارد سعيد عمل على إنتاج الشرق على شكل تركيب لغوي/ نصي، وأحد مقاصده هو تحسس وتعزيز الهوية الذاتية عبر الضد/ النقيض/ الآخر/ المختلف، حتى وإن كان هذا الآخر مختلقاً، متخيلاً.

ومثلما يحكي سعيد عن الناقد جوّالاً وبدوياً متنقلاً فالأمر عينه ينطبق على الروائي. والغرب حين عاش إشكالية البحث عن الهوية أيقظ النزوع نفسه عند الشرقي الذي كان عليه القيام برحلة معاكسة، باجتياز حدوده، بدخول الحاضرة المتروبولية والتماس بثقافتها.. هنا، صارت للشرقي أيضاً مرويته، وتوفر له الشرط والإمكان لكتابة الرواية.

قيل كلام كثير عن موت الرواية إلاّ أن الروايات لا تزال تُكتب، وتجد لها ملايين القراء، فالرواية باستطاعتها بحكم مرونتها وقدرتها على خرق الحدود أن تبدل شكلها، أن تغير قواعد اللعبة، أن تلعب بطريقة مغايرة (أن تغامر في أرض أخرى) في كل مرة ترتفع فيها الأصوات لتعلن موتها.. إنها مثل العنقاء تستيقظ من رمادها ولكن على نحو جديد في كل مرة (مرة بطريقة تيار الوعي، ومرة بالأشكال التي سميت بالرواية الفرنسية الجديدة، ومرة بأسلوب الواقعية السحرية، ومرة من منظور ما بعد الكولونيالية. الخ، الخ). واليوم توضع كلمة رواية على أغلفة كتب تبدو للوهلة الأولى متباينة في تعاطيها مع اللغة وعالم البشر والأشياء وفي أساليبها وأنساقها السردية، أي في قواعدها ومنظوراتها. وفي حوار طريف بين موريس نادو ورولان بارت يقول الأول: " يمكننا أن نقول إن هذا الجنس الأدبي قد تحول وتطور. فلم يعد من الضروري وضع كلمة (رواية) على غلاف رواية معينة" فيرد الثاني: "إننا لم نعد نضع كلمة (رواية) عندما يتعلق الأمر بالروايات، ولكن بإمكاننا أن نضعها عندما لا يتعلق الأمر بالرواية".

في هذه الحالة، على الروائي أن يلج حقل الكتابة وهو متحرر من أحكام التقويم المسبقة، من سطوة التعاليم المتعالية، من سلطة الممنوعات. هكذا، في مغامرة غير مأمونة العواقب، غير معني بما سيكون رد الفعل، وغير حذر من النتائج.. إنها كتابة تخرج على المعتاد، وتنكل بالمألوف والمتعارف عليه والحدود، لا في الأشكال والأنساق السردية وحسب، بل وأيضاً في التعاطي مع اللغة، مع مفردات الواقع والتاريخ، وفي الرؤية، ولا سيما في الرؤية. أن يرى كل شيء في طزاجته وبراءته وحيويته، وحتى من غير ضمانات تتيح الوقوع على الحقيقة، أو ضمانات أن يخرج أي شيء سالماً منها (الأفكار، القيم، المعايير، الرؤى، الأشكال، الاتجاهات.. الخ، الخ). فقط ضمان الوقوف عند تخوم الإمكان، عند أفق الاحتمالات، حيث يغدو المضي بالمغامرة، إلى حده الأقصى، هاجساً متطلباً لا خلاص منه، وحيث تصبح الرواية عملاً نقدياً عميقاً، من طراز رفيع.